

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية في مصر

بقلم

إعداد : محمد سعيد (pan shi chang) *

ثمة علاقة وثيقة بين المسرحية والقيم الإنسانية الأخلاقية، حين يعالج المؤلفون قضايا الإنسان الكبرى في مسرحياتهم، فمن الميسور أن نلاحظ فيها القيم الأخلاقية المختلفة من خلال تطور الأحداث والصراع بين الشخصيات، باعتبار أن فن المسرحية نشأ على أحضان الأديان التي تدعو إلى الأخلاق الراقية قديما وحديثا. ومن هنا يجب علينا أن نرجع إلى نشأة المسرحية قليلا لتتضح لنا العلاقة بين المسرحية والدين والأخلاق.

كانت المسرحية نشأت في مصر القديمة من أصل ديني ومما يدل على ذلك أن موضوعات المسرحيات الأولى مستلهمة من الأسطورة عن أوزوريس إله الزرع والخصب والخير والنماء. ومن خلال النقوش الفرعونية على آثارهم الخالدة تتضح حقيقة مسرحية هذه الأسطورة، واشتراك الفرعون والكهنة والأمراء والشعب في تمثيلها داخل المعابد في ساحاتها وعلى شاطئ النيل العظيم^١.

* - طالب في مرحلة الدكتوراه بكلية اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد..

١- المسرح الإسلامي روافده ومناهجه: أحمد شوقي قاسم، دار الفكر العربي، ١٩٨٠م، ص: ٩.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

ونشأت المسرحية في اليونان القديم كذلك من أصل ديني، حيث أقاموا اليونان الحفلات في الربيع والشتاء لتقديس الآلهة، فنشأ فن المسرحية من طقوس دينية منذ ذلك الحين^١.

والمعروف أن مسرحية الرومان بدأت أول ما بدأت تقليدا للمآسي اليونانية، وقد نهلت من الأساطير التي تصور حياة الآلهة وتدور حولها وحول قدسيتها وإحياء طقوسها العبرية وإظهار محور القضاء والقدر^٢.

وكما أن المسرح ابتداء من أصل ديني في الإنجليز، وكان الموضوع في المسرحيات الأولى دينيا ثم أدخل على موضوع هذه المسرحيات الدينية شيء من الأخلاق كالعدل والسلام والصدق والكذب، وسميت مثل هذه المسرحية بمسرحية خلقية، واستمرت المسرحية الخلقية حتى أوائل القرن السابع عشر ثم أخذ الناس يملون النصائح والمواعظ الخلقية ويطلبون معالجة مشكلات الحياة ورؤية شخصيات مألوفة^٣.

ومن هنا يتضح لنا أن المسرح كان بدأ في أحضان العقائد الدينية، فقد كان الموضوع المفضل في معظم الأعمال المسرحية هو الصراع بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة والأمانة والإيثار. وينتصر في عمومها لقيم الخير والحق والجمال.

ثم تلقى نظرة على "فن الشعر" لأرسطو الذي يُعتبر إنجيل الكلاسيكية، ولنرى مكانة الأخلاق في المأساة. وإن المأساة تحتوي على ستة عناصر حسب نظرية أرسطو وهي: الخرافة والأخلاق والفكر والمنقول والمنظر المسرحي والنشيد.

١- المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها لعمر الدسوقي، دار الفكر العربي الطبعة الخامسة، ١٩٧٠م، ص: ٧.

٢- المسرح الإسلامي لأحمد شوقي قاسم، ص: ١٦.

٣- المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها لعمر الدسوقي، ص: ١٠.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

فالخرافة - يقصد الحكاية هي مبدأ المأساة وروحها. أما الذي يتلوها في المرتبة الثانية هو الخلق^١.

لما شرح أرسطو هذه العناصر فأشار إلى معنى الخلق بقوله:

"أعني الخلق ما يجعلنا نقول عن الأشخاص الذين نراهم يفعلون إنهم يتصفون بكذا وبكذا من الصفات." ثم يقول في مكان آخر: "الخلق هو ما يرسم طريق السلوك وهو ما يختاره المرء إذا ما أشكل الأمر أو يتجنبه"^٢.

ويربط أرسطو بين الأفعال في الحكاية وبين الأخلاق فيها، لأن الأشخاص في الحكاية لا بد أن يلتزموا بالأفعال، وأصحابها بالضرورة إما في جانب الخير وإما في جانب الشر، وعلى ذلك تكون الحكاية التي يعيها أرسطو هي تلك التي تستلزم أخلاق الأشخاص الذين نسد إليهم أفعالاً، كما تستلزم ما يعبر عنه هؤلاء الأشخاص من الأفكار. ومعنى هذا أن الحكاية تحتوي ضمناً على الأخلاق والفكرة وهما الجزءان الجوهريان في المأساة بعد الحكاية^٣.

وعلى ذلك فإن الفعل الرئيسي في المأساة يجب أن يكون نبيلاً. حتى يكون أبطال المسرحية على خلق كريم، دون أن يمنع ذلك من الاستعانة بأشخاص ثانويين على غير خلق يفيد تصويرهم في إحداث الأثر المأساوي المطلوب، على شرط أن تدعو إلى تصويرهم الضرورة الفنية^٤.

وأشار الدكتور محمد غنيمي هلال إلى مكانة الخلق في المسرحية وقال:

١- فن الشعر لأرسطو، دار الثقافة بيروت لبنان، ١٩٥٢م، ص: ٢٠-٢١.

٢- المرجع نفسه، ص: ١٩، ٢٢.

٣- المسرح فن وتاريخ لجلال العشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١ م، ص: ١٦.

٤- المسرح فن وتاريخ لجلال العشري، ص: ٣٢.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

"يرى أرسطو أن الفعل الأساسي في المأساة يجب أن يكون نبيلًا، فيكون أبطال المسرحية على خلق كريم. لأن غاية المأساة خلقية في جوهرها"^١.

ولكنه يرى أن الخلق ليس بالمعنى المؤلف بل له المعنى الفني الآخر ويقول: "إن أرسطو يعني بالخلق، لا من الوجهة الأخلاقية ولكن من حيث وظيفته الفنية المتصلة - ضرورة - بما سبق أن تحدثنا عنه في الممكن والمستحيل والمحمّل، والمتأثرة طبيعياً بالعادات والتقاليد المتبعة لدى ذلك الجمهور كي ينتج العمل الفني أثره"^٢.

ومن الطبيعي أن الأخلاق النبيلة التي تدعو إليها المسرحية فيها تتصف بوظيفة التطهير والتهديب لدى معظم النقاد. وفي الواقع يرى كثير من النقاد قديماً وحديثاً أن كلمة التطهير يقصد بها التطهير الأخلاقي. ولكن الدكتور محمد غنيمي هلال يخالف هذا الرأي كما أنه يخالف غيره في معنى الخلق، ويرى أن كلمة التطهير التي ذكرت في كتاب "فن الشعر" وكتب أرسطو الأخرى لم يقصد منها معنى دينياً أو خلقياً بل يرى فائدة التطهير هي تهدئة انفعالات الناس من خلال مشاهدة المسرحية، وهو يقول:

"ولا يقصد أرسطو أن المأساة تطهير للأخلاق جملة، كما فهمه كثير من الشراح الإبيطاليين والكلاسيكيين والفرنسيين، ولكنه يرى أنها تطهير للرحمة والخوف وما يتصل بهما مباشرة من الانفعالات"^٣.

على كل لا أحد يستطيع أن ينكر وظيفة التطهير للمسرحية الجادة، وما فيها من الأخلاق الراقية. والواقع أن المسرحية فرع من فروع الأدب الذي له وظائف إما يهدف إلى الفائدة، أو إلى المتعة أو إلى جمع الفائدة والمتعة معاً^٤.

١- النقد الأدبي الحديث" لمحمد غنيمي هلال، نهضة مصر، القاهرة ص: ٧٢.

٢- المرجع نفسه، ص: ٧٢.

٣- النقد الأدب العربي الحديث لمحمد غنيمي هلال، ص: ٨١.

٤- نظرية الأدب لشابن- عكاشة، ص: ١٩.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

بالنسبة إلى وظيفة التطهير للمسرحية، قال رائد المسرح الأول مارون النقاش السوري: "بهذه المراسح تنكشف عيوب البشر، فيعتبر النبيه ويكون منها على حذر، وعدا اكتساب الناس منها التأديب، ورشفهم رضاب النصائح والتمدن والتهذيب" وقال في مكان آخر: "إن هذا الفن فيه تصايح، لاشتماله في قالب المزاح والفكاهة على كشف العيوب والقبائح، تهذيبا للعاقل وتأديبا للجاهل".¹

وإذا كانت المسرحيات الأولى في بلاد العرب تتصف بوظيفة التطهير فيمكن أن نقول بالتأكيد: إن المسرحيات بعدها تسير على هذا المنهج نفسه، أي تدعو فيها إلى جميع القيم الأخلاقية الراقية والتقبيح جميع الصفات الدنيئة، فأود أن أكشف هذين النوعين من الخلق اللذين يتصف الشخصيات بهما في مواقف المصارعة في مآسي مصر.

الإنسانية الخلقية الراقية:

إذا ألقينا نظرنا على المآسي في مصر، سنجد معظم الكتاب يحاولون عرض الظواهر المتعددة من الإنسانية الأخلاقية بجانب معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية، وغيرها من القضايا البشرية الأخرى باعتبارهم كتّابا مسلمين. وكثير من المسرحيات موضوعاتها مستلهمة من تاريخ الإسلام وشخصياته ووقائعه، وبهذا تتناول المآسي في مصر جوانب متعددة من الأخلاق الراقية، ومن الميسور أن نشير إليها كما يلي:

وفيما يتعلق بالشخصيات الأسطورية، فنجد المؤلفين يغيرون ملامحها الأصلية مرة وبيقونها مرة أخرى. يصور توفيق الحكيم وعلي أحمد باكثير في مسرحياتهما شخصية أوزوريس وإيزيس كما كانا في الأسطورة اليونانية القديمة.

١ - المسرحية في الأدب العربي الحديث للدكتور محمد يوسف نجم، دار الثقافة، لبنان الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧م، ص: ٣٤.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

وأوزوريس كان ملكا يعدل ويرحم وينعم ويجتهد في شؤون حياة شعبه. أما ايزيس فهي امرأة ذات عزيمة وصبر وشجاعة ووفاء وتفائل وهي لا تياس ولا تتراجع ولا تستسلم حتى تصل إلى هدفها.

أما شخصية أوديب فنجد كلا المؤلفين السابقين قد غير صفاتها كثيرا أو قليلا. المعروف أن أوديب ملك نبيل جاهد في إزالة الوباء من شعبه، ثم تحمل مسؤولية ارتكاب الجريمة وفقا لعينه نادما، وبهذا نشفق عليه ونفرع من مصيره. بينما نجد كلا المؤلفين قد أنزلا أوديب في مسرحياتهما مكاتة النبيل إلى الإنسان العادي الذي له نقص وضعف. سأسير إلى ذلك في الأخلاق الدينية.

وواضح أن المؤلف لمأساة ابن حنبل يحاول أن يمدح أخلاق الإمام العظيم الفاضلة خلال عرض مأساته في قضية خلق القرآن. نرى أن الإمام رحمه الله يلتزم بالحق بشجاعة نادرة وإيمان قوى وصبر دائم، كما أنه لا يخضع ولا يستسلم للخلفاء العباسيين الأربعة، ولا يقبل إغراء الخليفة المأمون أن يكون خليفه كما لا يقبل أن يكون خليلا للخليفة المعتصم.

والحلاج عند صلاح عبد الصبور ليس شخصا صوفيا فحسب بل مصلح اجتماعي على وجه التحديد، حيث إنه لم ينهمك في الذكر والعبادة والتقرب إلى الله، بل نظر إلى حياة الناس وما فيها من ظلم وفقر وجوع بنظرة العطف والحنان والعناية، فخلع ثيابه الصوفي ودخل عامة الناس ودعاهم إلى الحياة الجديدة، ولم يبال بأي خطر في سبيل ذلك حتى الموت، وهكذا تتجلى روح التضحية بوضوح في مأساته. ولا شك أن أبناء العالم العربي يحتاجون إلى روح التضحية، هذه أشد احتياج وخاصة العلماء، وإلا سيكون مستقبل الأمة لا يرى إلا في أبعد الوقت.

أما شخصية الحسين فلا أريد هنا أن أخوض في ذكر أخلاقه بحيث هو معروف عند المسلمين قديما وحديثا. فيكفيني أن أشير إلى أمرين فقط، أولهما: عندما كان يصل الحسين رضي الله عنه كربلاء، ويصيب أصحابه بالعطش الشديد

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

بقلة الماء، وعلى الرغم من ذلك إنه يعطي الماء ل (حر) - قائد يزيد بن معاوية حين يطلبه، ولكن عندما يطلب الحسين رضي الله عنه الماء من هذا القائد وأصحابه، رفضوا جميعاً.

ثانيهما:

إن الحسين رضي الله عنه يعرف أنه إذا يرحل إلى الكوفة سيتعرض للخطر والموت في أكبر المحتمل، مع ذلك راح يبذل التضحية في سبيل الحق، على أساس هذه الروح، تظهر الثبات والهدوء والحلم والعزيمة من بداية رحلته حتى لقاء الموت.

بلا شك أن الشخصية الرئيسية (ابن زيدون) في مسرحية "الوزير العاشق" هي الأخرى يستحق أن نحترمها بما عليها من أخلاق طيبة، والأخص منها روح المجاهدة. نقول دون المبالغة إنه ضمير الأمة حيث إنه يدرك المجتمع الذي يعيش فيه إدراكاً واعياً، كما أنه يدرك ظروف الشعب بظل هذا المجتمع الفاسد. ففي هذا الحين يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل وما مسؤوليته باعتباره شاعراً وعالماً يُعتبر من ضمائر الأمة، فيدعي الملوك ناصحاً واحداً تلو الآخر أن يقوم بالإصلاح في المجتمع حتى يؤمن الوطن ويسعد الشعب.

ومن الطبيعي أن هؤلاء الملوك لم يقبلوا آراءه بل أخرجوه وأنزلوه من منزلة الوزير، فقبض عليه باسم الخيانة والخداع. قد يبدو فعله شيئاً من السذاجة والبساطة ويشبه شخصية "دون كيشوت" التي يخلقها الكاتب الأسباني "سرفانتس" إلى حد كبير، ولكن روح المجاهدة هذه والتوجه إلى الأمام بشجاعة لأداء رسالته كفرد من أفراد الأمة هي من أتمن القيم الإنسانية العليا التي تحتاج إليها أية أمة من الأمم في العالم.

١- انظر "الحسين شهيداً" لعبد الرحمن الشرقاوي، ص: ١١، ٢٥، ٩١.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

أما سعاد في مسرحية "دماء على ستار الكعبة" فهي امرأة أخرى تمتاز بروح المجاهدة، إنها لا تجبن ولا تخضع لجبروت الخليفة، بل تستمر أن تكشف فساد المجتمع في كل مكان وكل وقت، حتى تسجن وتقتل، كما نجد أنها امرأة ودية، مهما أغراها الخليفة بالحب الكاذب والحياة النعيمة، لم تقبل سعاد حبه حيث يتعلق قلبها بزوجها أبدا.

يجب عليّ أن أشير إلى (حسن) في مسرحية "ليلي والمجنون" في هذا المقام وهو شاب متحمس يعتني بمستقبل الوطن دائما ويفكر في سبيل التطور والتغيير والتخلص من الحكم الظالم، ويعلم جيدا أن السلاح أو الثورة المسلحة هي الوسيلة الوحيدة للتغيير. لذلك يحمل قلمه في جيب وسيفه في جيب آخر، من المؤلم أنه يسجن بخيانة صديقه حسام.

لا أحد ينكر أن حب الوطن من القيم الإنسانية العليا، وفي الحقيقة قد تناول غير قليل من الكتاب والشعراء في مصر المشاعر الوطنية في مسرحياتهم، فتنجلي الوطنية في بعض المسرحيات الشعرية لأحمد شوقي تجليا كثيرا، وهي "على بك الكبير" و"كيلوباترا" و"قمبيز". كذلك حرص أحمد شوقي على إبراز الوطنية في بعض مسرحياته باستعانة الشخصيات التاريخية، حيث نجد أن "على بك الكبير" يحب وطنه مصر ويجاهد في سبيل استقلالها عن تركيا، غير أن مملوكه محمد أبو الذهب خان، فخرج عليه وتغلب على سيده وقبض عليه على بك الكبير في النهاية. كما نجد أن كيلوباترا وطنية مصرية تقدّم وطنها على حبها بتصوير شوقي الذي يختلف عن التصوير عند بعض الكتاب الغربيين. وفي مسرحية "قمبيز" يقدم لنا شوقي نيتاس مثلا آخر للتضحية والفداء للوطن، إذ تقبل أن تتزوج من قمبيز وتضحى بنفسها خوفا على مصر من قمبيز أن يغزوها بجيش لم يكن لها من قبل¹.

١- انظر في "النقد المسرحي" للدكتور محمد غنيمي هلال، ص: ٩١-٩٨.

وتقول نيتاس معبرة عن مشاعرها:

جئت أفدي وطني من سيف قمبيز وناره

جئت أفدي وطني من دنس الفتح وعاره^١.

ومن اليسير أن نجد أن مسرحيات شوقي عن التاريخ المصري تلتقي جميعها في صفة واحدة، هي تصوير الأيام السود في ذلك التاريخ، وتتناول بشكل دقيق الفترات التي كان يسود فيها الظلم والهمجية وخضوع البلاد للأجانب، وبكلمة أدق أن المسرحيات تتحدث عن مصر المتدهورة سياسيا، مصر المحتلة التي يحكمها الغرباء الفاتحون^٢.

هناك غير قليل من الشخصيات الثانوية التي تمتاز بصفات محمودة منها: ابن نوح الذي يلتزم بالحق مثل أستاذه أحمد بن حنبل رحمه الله، وسلام الذي يؤيد الحق والعدل ويعطف على الناس كما أنه يكره الظلم والفساد والاستبداد، والكاهن المصلح الذي يقاوم جبروت رجال الدين في سبيل الحق وتبيين الحقيقة، ومحبي الدين الذي يجاهد في سبيل تحرير الوطن واستقلاله. وواضح أن هذه الشخصيات لها أثر إيجابي في تطوير أحداث المسرحية، وإبراز ظواهر الشخصيات الرئيسية في نفس الوقت.

القيم الإنسانية الدنيئة

يرى أرسطو أن الفعل الأساسي في المأساة يجب أن يكون نبيلًا، فيكون أبطال المسرحية على خلق كريم، لأن غاية المأساة خلقية في جوهرها. وفي الوقت نفسه، يرى لا بأس من الاستعانة بأشخاص ثانويين سيئ الخلق يفيد

١- مسرحية "قمبيز" في الشوقيات ٤٣٨١٧ .

٢- الشاعر العربي الحديث مسرحيا لمحسن أطمش، دار الحرية ببغداد، ١٩٧٧ م، ص:

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

تصويرهم في إحداهن الأمر المأساوي على أساس أن تكون الضرورة الفنية في تصويرهم^١ يعني أن الشخصيات في المأساة ليس من الضروري أن تكونوا نبيلات في جميع الأوقات، إذ لا تستغني المأساة عن الشخصيات الشريرة إلى حد كبير، ويرتب المؤلف بها مواقف الصراع، حتى تتضح الفروق الخلقية بينها وبين الشخصيات الفاضلة، كما أن المأساة تثير الشفقة والفرح في نفوس المشاهدين بسهولة بالتصوير المناسب لهذه الشخصيات في المسرحية.

انطلاقاً من هذا نجد كثيراً من الشخصيات التي تتصف بالأخلاق السيئة في المأساة في مصر. نذهب أولاً إلى شخصية (ست) عند توفيق الحكيم وعلى أحمد باكثير، كما أشرت إلى ذلك، كلا المؤلفين لم يغيّر ملامح ست في تصويرهما بل أبقياه كما كان في الأسطورة القديمة، حيث كان يتصف بالكذب والخداع والطمع والحقد والغدر والخيانة. عرفنا مما سبق أنه طمع عرش أخيه وأدخله في التابوت بالحيلة، ثم ألقاه في اليمّ وقطع جنته إرباً إرباً بالقسوة. نرى أنه لم يفكر في عاطفة الأخوة قط، كما أنه لم يفكر في حياة الشعب بل فكر في السلطة والمتعة في الدنيا.

ثم إن الكاهنين في مسرحية "الملك أوديب" لتوفيق الحكيم و"مأساة أوديب" لعلي أحمد باكثير يتصفان بهذه الصفات نفسها. أحدها كذب وخدع وكنم حقيقة أوديب سبعة عشر عاماً، وإنه طمع في تحقيق إرادته الأتانية فصنع الوحي الإلهي الزائف لهذا القصد الخبيث. والآخر أحب المال وجمعه من شعب طيبة بوسائل مختلفة باسم الدين. عندما سمع أن أوديب يريد توزيع أموال المعبد بين الناس لإزالة أزمتهم فحارب أوديب بكبريائه وجبروته الدينية. والحقيقة أن مأساة أوديب ترجع إلى تدبيره إلى حد غالب.

١- فن الشعر لأرسطو، ص: ٧٢-٧٣.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

أما أوديب عند المؤلفين السابقين، فلا ننكر أنهما يمتازان بالعدل والرحمة وتحمل المسؤولية حين يواجهان المشاكل والكروب. ولكن في نفس الوقت رأينا منهما بعض الأخلاق السيئة من خلال تطور الأحداث. فنجد كلاهما كتما حقيقة مصارعة الأسد المصيف زمنا طويلا، ثم نجد أوديب عند توفيق الحكيم أراد استمرار العلاقة الزوجية مع أمه بعد أن يعرف الحقيقة. كما أنه فقاً عينه لا تكفيرا عن إثمه بل لكي يبكي جوكاستا التي يعشقها غراما بالدم بدلا من الدموع^١.
بينما نجد أن أوديب لعلي باكثير قد عرف صفات الكاهن الأكبر منذ صعود عرشه، ولكنه لم يعاقبه بل تركه يفعل كما يشاء، لا يحاربه إلا حين حدث التعارض بينهما. كما أنه كثير الشك في صدق الناس حوله، كان يشك في صدق الكاهن المصلح الذي يريد أن يساعده على حل تلك المشكلة الكبرى، ويشك في صدق أمانة أخي زوجته كريون الذي يخدمه بالصدق والأمانة والوفاء والإخلاص على الدوام.

على كل حال نجد المؤلفين السابقين أنزلا أوديب من مكانة النبل إلى الإنسان العادي الذي له نقص وضعف، ليخفف الطابع الأسطوري وتعرض أفكارهما الحديثة في المسرحية المعارضة. إذا كانت شخصية أوديب لتوفيق الحكيم ليست ناجحة كما أشار إلى ذلك بعض النقاد - قد ذكرت ذلك فيما سبق، فذلك يمكن أن نقول إن شخصية أوديب لأحمد باكثير ليست ناجحة حسب نفس المعيار.

وإذا قرأنا مسرحية "الوزير العاشق"، فسنجد فيها بعض الصفات السيئة عند الشخصية الثانوية "ربيع" مثل: الخيانة والخداع والمكر والكذب والخضوع للملك. حين عين ابن زيدون وزيرا، ذهب إليه وهيا له، وجامله بالكلام الجميل، ثم عاد إلى الملك وافترى على ابن زيدون بأنه يوسوس للأمراء والحكام ليكون ملكا، فغضب الملك على ابن زيدون وأقاله من الوزارة وسجنه. ثم ذهب هذا الرجل

١- انظر مسرحية "الملك أوديب" لتوفيق الحكيم، ص: ١٣٥.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

الخبيث إلى ولادة - خطيبة ابن ويدون، أغراها مرة وخوقها مرة أخرى ليناها، غير أن ولادة امرأة وفية رفضته. هكذا هدمت سعادة ابن زيدون ولادة على يديه. ويمكن أن نجد مثالا آخر مثل "ربيع" يخون أصدقاءه في مسرحية "ليلي والمجنون" لصالح عبد الصبور. وهو حسام يُعتبر نموذجا من النماذج البشرية الرذيلة التي يضمها أي مجتمع من المجتمعات، ويتظاهر بأنه صاحب مبدأ ويجاهد في سبيل الوطن، ولكنه حين يتعرض للمشاكل والتصادم في الطريق والإغراء من قبل السلطة، يخضع لها ويستسلم أمامها، ثم يصير جاسوس السلطة، ويهاجم أصدقاءه، فقبضوا بعض زملائه بسبب خيانتهم، ومن الواضح أن الناس مثل حسام هم عوائق تقدم المجتمع والتطور في الطريق إلى المستقبل.

ثم نذهب إلى مسرحية "المخبأ ١٣" لمحمود تيمور، نجد فيها بعض الشخصيات التي تختلف عن الشخصيات الشريرة السابقة قليلا أو كثيرا. ليس عجا أن نرى "تبييل بك" يحقر الآخرين بكبريائه حيث إنه ينتمي إلى الطبقة الارستقراطية.

أما "فيهم الخشن" فكيف يحقر الفقراء ويعتبرهم قذارة وهو أستاذ عادي في القرية أو نقول إنه واحد منهم لطبقة واحدة، رغم ذلك يرى أنه من العار أن يلتقي بالفقراء في هذا المخبأ الضيق، كما يرى أن مراعاة نظام الطبقات في كل مكان ضرورة حتى داخل المخبأ، كما إنه يكره الدين ويرى أنه من الأساطير القديمة الكاذبة. ثم نجد بائع الكعك "الغولي" من عامة الناس، نعرف ذلك من حرفته، ولكنه يهدد العجوز بلهجة عنيفة مرة ويضرب ماسح أحذية مرة أخرى، ويسلب نقودا قليلة من الشيخ الأبله الأخرس بالقوة والقسوة مرة ثالثة، في الواقع يجب عليه أن يعطف على من مثله من فقراء وضعفاء ينتمون معه لطبقة واحدة. وألا يظلمهم ويضربهم بالقوة والعنف والجبروت. وأن الناس مثل "الغولي" كثيرون في حياتنا الواقعية، وإنهم لا يستطيعون أن يحققوا رغبة السيطرة والتحكم في حياتهم

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

وأمرهم، فيوجهون هذه الرغبة إلى عامة الناس مثلهم وإن كان ينتمي إلى نفس الطبقة معهم.

ثمة بعض الملوك والخلفاء والوزراء والقضاة في المآسي "الوزير العاشق" و"بعد أن يموت الملك" و"مأساة ابن حنبل" و"مأساة الحلاج" و"دماء على ستار الكعبة" وغير هذه من المآسي الأخرى، نجد الصفات الحقيرة عندهم: ككبر وظلم وعناد وغيره وحقد وعنف وقسوة، فضلا عن الصفة المشتركة بينهم وهي حب الدنيا وما فيها من لذة ومتعة.

أخيرا أريد أن أشير إلى صفة غير محمودة وهي صمت الجمهور أمام الباطل والظلم، وفي الحقيقة هذه الصفة تؤدي أثرا أسوأ من الخداع والكذب والخيانة أحيانا، حين تتعرض الأمة للفوضى والفساد، إذا سكت الجمهور عن ذلك، هذا أمر مؤلم قاس، وخاصةً هناك رجل يدعو إلى الحق والإصلاح وما زال الجمهور في الصمت، إن المأساة في هذا الحين ليست لهذا الرجل فقط، بل لهذه الأمة جميعها. من المؤلم أن نجد في مسرحية مأساة الحلاج أن الواعظ والفلاح والتاجر صمتوا حين يرون الحلاج مصلوبا، وهم يتحدثون عن الأمر فرحين، وحتى يقول التاجر:

نعم، فقد يكون أمره حكاية طريفة أقصها

لزوجتي حين أعود في المساء

فهي تحب أطباق الحديد في موائد العشاء

ويقول الفلاح:

أما أنا، فإنني فضولي بطبعي

كأنني قعيدة بلهاء

وكلما نويت أن أكف عن فضولي

يغلبني طبعي على تطبعي

ويقول الواعظة

وحبذا لو كان في حكايته

موعظة وعبره

فإن ذهني مجذب عن ابتكار قصة ملائمه

تشد لهفة الجمهور^١.

ثم نجد في مسرحية مسافر ليل، حين يُظلم ويُضطهد الراكب، يسكت الراوي وهو يشهد بذلك بعينه، ولم ينصره ولم يقل كلمة تؤيده.

كما نجد في مسرحية محاكمة رجل مجهول لعز الدين إسماعيل، حين يُتهم الرجل بالتهمة الكثيرة، والجمهور صمتوا ولم ينصروه ولذلك تنكر أم الرجل أن تعترف بأن هؤلاء الناس أبناؤها وهي تقول:

المرأة: الدم تلوث

الكورس: لم ندرك هذا منذ البدء، ولكننا ندركه الآن

المرأة: ولدي ينقذكم

الكورس: يا ليت

المرأة: لو كنتم معه صفا

الكورس: يا ليت

المرأة: لستم أبنائي إن لم تقفوا صفا^٢.

١- الأعمال الكاملة - المسرح الشعري لصلاح عبد الصبور ص: ١٥١.

٢- الشاعر العربي الحديث كسرحيا لمحسن أطمش، ص: ٣٣٢.

المواقف تجاه الموت:

إن الموت مصير محتوم لكل إنسان في هذه الدنيا، هذا قانون قطعي يفرضه الله على جميع البشر، لا أحد يستطيع أن يتجنبه أو يتخلص منه إذا جاء أجله. كما قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: كل نفس ذائقة الموت.^(١) ومن الطبيعي أن الموت فيه ألم وهو أمر مخيف لجميع الناس في العالم، ولكن كيف وبأي موقف يواجه الإنسان الموت؟ هناك خلاف كبير بين الناس، منهم من يحرص على الحياة ولو يعيش بالخضوع والذل. ومنهم من يواجه الموت بشجاعة أو نقول إنه أثر الموت على الحياة ليحفظ كرامة نفسه أو كرامة وطنه أو كرامة إيمانه. ومنهم من يتردد بين الموت والحياة ويصعب عليه أن يختار بينهما، قد تفيد الحياة ولكن فيها ألما، وقد يكون الموت تخلصا تاما له، ولكنه كذلك فيه ألم. هملت الحزين المتردد هو أحسن مثلاً لهذا النوع: "أكون أو لا أكون هذه هي القضية". على كل أن النوع الثاني من الإنسان يُحترم عندنا، إنه يمثل خلقاً رفيعاً في ذلك الحين كما أنه يمثل روح التضحية العظيمة التي يحتاج إليها جميع البشر في كل عصر من العصور.

مواجهة الموت أمر يحدث كثيراً في المأساة باعتبار المأساة هي الفن الذي يأتي إلينا بالدموع والحزن والألم والموت في كثير من الأحيان، فمن الميسور أن نجمع بعض الشخصيات في المأساة في مصر وهم كانوا يواجهون الموت بالشجاعة، منهم من يبتسم في المحكمة أو ميدان الموت ومنهم من ينتظر الموت في البيت هادئاً.

أولاً لنذهب إلى الحسين رضي الله عنه، إنه رحل إلى الكوفة مع أصحابه بالثبات والعزيمة، عندما وصل كربلاء وعرف خيانة أهل الكوفة، فأدرك أن الموت هو مصيره المحتوم، ولكنه ماذا يفكر في ذلك الحين.

١- سورة آل عمران : ١٨٥ .

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

الحسين: (مستمرًا على ربوة وحده).

فأنا الشهيد هنا على طول الزمان.

أنا الشهيد

فلتصبوا جسد الشهيد هناك في وسط العراق

ليكون رمزا داميا

للموت من أجل الحقيقة والعدالة والإبلاء

طوبى لمن يعطي الحياة لقيمة أعلى عليه من الحياة

طوبى لأتباء الحقيقة أدركوا أن الإبلاء

هو الطريق إلى النجاة

وتذكروني دائما

فلتذكروني كلما استشرت طواغيت الظلام^١.

ثم ننتقل إلى الحلاج الذي كان يواجه الموت بالهدوء، حين طلبه القضاة في

المحكمة أن يدافع عن نفسه وهو يقول:

لستم بقضائي

ولذا لن أدفع عن نفسي^٢.

قد عرف الحلاج واضحا أن هؤلاء القضاة لن يعطوه الحق، وأن الدولة تريد

قتله، ولا جدوى عندئذ لعقد مجلس القضاء، وما على القضاة إلا أن يتبعوا إرادة

الدولة، فترك الدفاع عن نفسه، مع ذلك نجد أنه يوضح أفكاره وموقفه في

المحكمة بالثبات والصراحة ثم ينتظر حكم الموت عليه بالهدوء.

١- "الحسين شهيدا" لعبد الرحمن الشرقاوي، ص: ١٠٤.

٢- الأعمال الكاملة لصلاح عبد الصبور - مأساة الحلاج، ص: ٢٤٥.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

ثم ننظر إلى ابن زيدون في مسرحية "الوزير العاشق" لنراه كيف يواجه الموت، حين أمر صديقه الخائن ربيع بقتله، فيقول ابن زيدون:

أن تقتل حلما..

سيجيء زمان وزمان

ويطوف الحلم على الطرقات

كل الأشياء ستحملة.. كل الأشياء.

سيطوف الحلم على الأشجار

وبين الناس

أن تسجن صوتا

سيجيء زمان ينطقنا

وستصرخ كل الصيحات

قد تقطع رأسي لكني

سأعيش زمانا بالكلمات^١.

كان ابن زيدون يعتقد يقينا أن حلمه - وهو الإصلاح والعدل لن يموت بموته، بل يعيش في كل مكان وبين الناس، سيعيش بالكلمات، وإن كان بقطع رأسه.

فشخصية سعاد هي الأخرى تدعو إلى إقامة العدل قبل الموت، إنها لم تشعر بالآلم والحزن تجاه أنموت بل تمننت إقامة العدل في الأرض، وصحيح أن جميع الناس حتى الحكام والملوك سيموتون ويفنون، وحياتهم وجبروتهم لا قيمة لها ولا تساوي شيئا بعد موتهم، ولكن العدل هو أثنم شيء فوق الأرض:

١- مسرحية "الوزير العاشق" لفاروق جويذة، ص: ١٥٠-١٥١.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

(يتجه رجال الشرطة إلى الصالة يحاصرون الجمهور .. بينما يلتف حبل المشنقة حول رقبة سعاد).

سعاد: كل الحياة إلى زوال...

حكامها ... تيجانها ... ألقابها...

فالناس تمضي أو تجيء

والعمر يرحل لا يجيء

لكن أعظم ما يراه الناس فوق الأرض

إنسان أقام العدل في زمن الضلال^١.

ثم ننتقل إلى شخصية ست في "الناس في طيبة" وهو مصلح اجتماعي عند تصوير الدكتور عبد العزيز حموده، يخالف هذا التصوير تمام الاختلاف عن ست في الأسطورة القديمة. إن ست في هذه المسرحية قتل أخاه أوزوريس ليحقق خطته عن الإصلاح، لكنه فشل في النهاية مع الأسف الشديد، فقرر أن يدفع ثمنه لقتل أخيه وفشل الإصلاح. إنه يجلس في قصره و ينتظر إيزيس الظافرة أي ينتظرها لتقتله، ولذا رفض نصيحة زوجته للفرار فقال:

إلى أين؟

هناك أمور لا نستطيع أن نهرب منها مهما حاولنا

ذاك هو الثمن الحقيقي الذي يجب أن أدفعه وعن طواعية تماما كما

دفعه أوزوريس من قبل^٢.

كذلك نجد شخصية أخرى تتخذ نفس الموقف عندما فشلت في خطتها عن استقلال الوطن، ألا وهي زينب في مسرحية علي أحمد باكثير، كانت تستطيع أن

١- "دماء على ستار الكعبة" لفاروق جويده، ص: ١٨٢.

٢- "الناس في طيبة" لعبد العزيز حموده، ص: ٩٩-١٠٠.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

نفر وتنجو نفسها قبل إتيان الأعداء، ولكنها رفضت ذلك بل صممت على لقاء الموت لإيقاظ ضمائر أبناء الوطن. عندما يرفع السيف على رقبتها، هي لا تنسى أن تدعو لمستقبل الوطن وهي تقول:

"يا رب أنقذ الكنانة وادفع بلاعها وارفع لواءها وأصلح رجالها وارحم نساءها. واجعل لها جيشا من بنيتها يعزها ويحميها. يا رب أنت العليم وأنت الخبير. وأنت المولى وأنت النصير"^١.

وإذا نظرنا إلى مسرحية "المخبأ ١٣" سنجد طائفة من الناس مختلفة تمام الاختلاف عن الطائفة السابقة التي ذكرتها آنفا. حيث إنهم يواجهون الموت بالخوف والجبن والحيرة، وليس ذنبا لمن يشعر بالخوف إزاء الموت، ولكن هؤلاء الناس يريدون التغلب على الخوف بالطرق غير المحمودة، كانوا يرون أنهم سيخرجون من المخبأ بعد ساعة أو بضع ساعات على الأكثر، ولكن بعد أربع وعشرين ساعة مازالوا في المخبأ باستمرار الغارات الجوية، فبدأ يشعرون بالخوف وتصدقوا على الشيخ الأبله الأخرس إذ إنهم لا ينظرون إليه نظرة من قبل. الأقوال التالية لا تدل على شجاعتهم بل تدل على خوفهم وجبنهم بحيث إنهم لا يريدون الموت حقيقة:

"ليس في الموت ما يخيف مطلقا!

لقد أصبت الموت لا يخيف أبدا.. إنه انتقال سريع من حالة إلى حالة ..

انتقال من دنيا القيود إلى عالم الخلاص!

حيث يحاسب الله كل إنسان بما فعل!

كلنا عباده المخلصون...^٢.

١- "مأساة زينب" لعلي أحمد باكثير، ص: ١٢٥.

٢- "المخبأ ١٣" لمحمود تيمور، ص: ٥٧.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

ثم نجد هؤلاء الناس يصلون جماعة في المخبأ وكانوا لا يصلون قبل ذلك حتى يرى أحدهم أن الدين من الأساطير الكاذبة، ولكن الآن يرون أنهم سيموتون حتما، فيصلون لنيل المغفرة من الله تعالى. ثم نجد أنهم يرقصون ويغنون لعبا ولهوا، ليتمتعوا بالحياة مرة أخيرة في هذه الدنيا، فترك "تبيل بك" كبريائه وشارك الآخرين في الرقص، كما تركت "محاسن هانم" التحفظ والآداب للطبقة الارستقراطية ورقصت مع الآخرين بحماسة، إذ إنها لا تسمح لخطيبها أن يلمس يدها من قبل.

تغيرت مواقف هؤلاء أمام الموت تغيرا سريعا، قد تحوّلوا من خلال أربع وعشرين ساعة كثيرا، وقد مرّوا بالكبرياء ثم اليأس ثم الرجاء ثم اللامبالاة، فحاضوا جميعهم في الرقص والغناء تاركين الرجاء والدعاء إلى الله سبحانه وتعالى إذ يسيطر عليهم اليأس التام.

فيما يتعلق بالقيم الإنسانية التي تتناولها المآسي في مصر، أريد أن أشير إلى بعض النقاط في ختام هذا البحث بما يلي:

- ١- يمدح المؤلفون القيم الأخلاقية الراقية ويذمون القيم الأخلاقية الدنيئة من خلال ترتيب المواقف غير العادية وخاصة المواقف التي تتعلق بالموت.
- ٢- وكتب أحمد شوقي بعض المآسي الشعرية، وتناول فيها عاطفة الوطنية، ولم يتناول الأخلاق للشخصيات في المعاملات الاجتماعية تناولا واسعا، ولهذا يبين الدكتور محمد مندور الأخلاق في مسرحيات شوقي قائلا: "أما شوقي فإن مبادئ الأخلاق عنده تستند إلى ما يسمي بأدب المواضعة والاصطلاح، أي ما تواضع عليه المجتمع من عادات وتقاليده لا تغوص في الضمير الفردي"^١.

١- الشعر المسرحي في الأدب العربي المعاصر لكمال محمد إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١ م، ص: ٢١.

القيم الأخلاقية في المسرحية المأساوية

٣- وكذلك لم يتناول توفيق الحكيم قضية الأخلاق في مآسيه تناولا كثيرا نرى أن معظم مآسيه للاتجاه الذهني، ويعالج فيها قضايا الفكر، فبهذا يقول توفيق الحكيم نفسه في هذا الصدد: "أقبل النظارة على المسرح ليشهد فيه صراعا يستثير النفاتهم ويهز أفئدتهم: صراعا هو في المسرح الدموي بين درع ودرع أو بين ثور ورجل، وهو في المسرح التمثيلي بين عاطفة وعاطفة. هكذا كان المسرح دائما ويكون، وإن الناس ليتأثرون دائما بالعواطف التي يحسونها في حياتهم الواقعية كالحب والغيرة والحدق والانتقام والعدالة والظلم والصفح والإثم، ولكن ماذا هم يشعرون أمام صراع بين الإنسان والزمن وبين الإنسان والمكان وبين الإنسان وملكاته؟...".

٤- ولم يتناول صلاح عبد الصبور قضية الأخلاق في مآسيه الشعرية الخمس التي تنتمي إلى الاتجاه الرمزي تناولا واسعا، سوى "مأساة الحلاج"، إذ يركز اهتمامه على إبراز قضية الوطن ومستقبله في مآسيه.

هذا لا يعني أن المسرحية للاتجاه الذهني والاتجاه الرمزي لا تصلح لأن تتناول قضية الأخلاق، بل يختلف تركيز المؤلفين في مسرحياتهم، كما رأينا ذلك في المآسي المذكورة.

١- الرمزية في الأدب العربي للدكتور درويش الخبدي، دار نهضة مصر، القاهرة ص: